

مدرسة الرواة وتأسيس منهج الكتابة التاريخية

Narrators School and the establishment of the historical writing approach

توفيق مزاري عبد الصمد

جامعة يحي فارس بالمدينة، mazaro64@yahoo.com

تاريخ النشر: 2021/01/05

تاريخ القبول: 2020 /08/05

تاريخ الاستلام: 2020 /09/27

الملخص:

يعتبر رواة مدرسة التاريخ الإسلامي الذين أسسوا لبناء المنهج التاريخي كمنهج استردادي قد أَلَمُوا مرحليا بالقواعد الأساسية ، لما احتواه تراثهم من دلالات منهجية يمكن اعتبارها أولى محاولات فصل التاريخ عن الأدب، وتمييزها بإشارات، اعتمد عليها من جاءوا فيما بعد كالطبري والواقدي والمسعودي، ثم الكافجي والسخاوي وابن خلدون في بناء مدرسة الكتابة التاريخية بأسلوب علمي ومنهجي. واستجلاء لدور بعض من أغفله الدارسون، فإن القراءة الواعية تبين أنهم استخدموا العديد من الآليات البحثية والمنهجية التي تعتبر الآن من أساسيات المنهج التاريخي والكتابة التاريخية. وهذه الدراسة تعمل على تفحص بعض النماذج في أسلوب الكتابة وآلياتها عند هؤلاء الرواة، وعلاقة ذلك ببناء المنهج التاريخي الذي يعتبر وليد الحضارة الإسلامية بامتياز.

كلمات مفتاحية: الرواة، التدوين، الرواية الشفوية، المنهج التاريخي.

Abstract:

The narrators of Islamic history are considered the founders of the methodology of historical writing because of the systematic connotations contained in their heritage. It can be considered the first attempt to separate history from literature and distinguish it with systematic references. Some great historians who came after them, such as Al-Tabari, Al-Waqdi, and Al-Masoudi, then Al-Kafji, Al-Sakhawi and Ibn Khaldun relied on it to build their school of historical writing in a scientific and systematic manner. In order to clarify the role of some of those who were overlooked by scholars, the conscious reading indicates that they have used many research and methodological mechanisms that are now considered among the basics of the historical method and historical writing. This study examines some examples of writing style and its mechanisms for these narrators,

and its relationship to building the historical approach which is considered the origin of Islamic civilization.

Keywords : Narrators, blogging, oral narration, historical approach.

مقدمة

لم يرد مصطلح التاريخ في التراث العربي، سواء في رواياتهم القديمة أو شعرهم الجاهلي، ولم يذكره القرآن الكريم ولا الأحاديث النبوية صراحة، ولكن من الأكيد أن النقلة النوعية التي أحدثها الإسلام في المجتمع العربي على مستوى التصور والمنهج والإنتاج الحضاري، جعل منهم أكثر الأمم اهتماماً بالنشاط الإنساني، فتداول عندهم مصطلح الرواية والخبر والأخبار للدلالة على التاريخ.

ومصطلح الخبر أو الأخبار الذي واكب اهتمامهم بلغتهم وتراثهم الشفهي ودينهم الجديد، افتقر إلى عنصر الزمن الذي هو عماد البناء التاريخي، ولهذا كانت رواية الخبر عند الرواة الأوائل محدودة في ميدان الحياة الخاصة، كحياة الملوك والأمراء والشعراء وغيرهم من عليّة القوم.¹

ولم يتبلور ويتضح مصطلح التاريخ إلا مع نهاية القرن الثاني هجري (9م)، بعدما شاع التدوين، وتطور مفهوم الحدث في بعده الزماني والمكاني، وأصبح الزمن عنصر أساسي في مضمون تدوين أحداث النشاط البشري عندهم. فطور في سياق مرحلي من المعرفة إلى الفكر ومن التراكمية إلى الدراسة والتحليل، وبذلك أسس المسلمون اللبنات الأولى لمفهوم التاريخ وأهميته، ثم منهج دراسته كتقنية فعّالة في بناء مجتمعات جديدة، ولا يزال يساهم في التطور البشري بتنشيط الذاكرة الجماعية وتقويم مسارها الحضاري.

والإشكالية الأساسية لهذه المداخلة، هي تفحص تلك النقلة النوعية التي أحدثها المجتمع الإسلامي في الانتقال من المعرفة إلى الفكر عن طريق البحث والتطوير في المناهج العلمية، أولاً منهج كتابة التاريخ، وثانياً منهج تفسير التاريخ، ودور مدرسة الرواة في بناء منهج الكتابة التاريخية بدرجة أولى.

1. الرواة والتدوين التاريخي قبل الإسلام

وهي من الأهمية بمكان سواء في معرفة طبيعة العربي الذي شكل المادة الأولى للمجتمع الإسلامي، أو دراسة الرواة الأوائل للتاريخ. وقد يكفي الولوج إلى مثالين أساسيين: أدب الأيام، وعلم الأنساب.

أيام العرب قبل الإسلام الموسومة بأدب الأيام، شعراً ونثراً، عبارة رواية قصصية، لا يشير كاتبوها إلى أنهم استندوا إلى مصادر مدونة، مما جعلها لا ترقى إلى مستوى الكتابة التاريخية، لاعتبارات كثيرة، رغم احتوائها على عناصر الرواية التاريخية من حيث تسجيلها لبعض الأحداث الكبرى، لكن هذه الأحداث يعوزها الاستمرار.

وكذلك يعوزها دراسة الأسباب والنتائج التاريخية، ولم تأخذ الزمن بعين الاعتبار قط، وبالتالي كانت عبارة عن قصص لإيناس السامعين ولمتعتهم العاطفية. ولذلك يمكن وضع روااتها ضمن خانة رواة الآداب التاريخية، التي لعبت فنونها وآدابها فيما بعد دورا هاما في الكتابة التاريخية عند الرواة المسلمين.

ورغم أن الأيام كانت مضطربة من ناحية التوقيت، ولا تخلوا من عصبية، وينقصها التأليف السبك ولا تحوي الفكرة التاريخية، ومع ذلك فإنها تحمل بعض الحقائق التاريخية.²

أما علم الأنساب، فلا شك أن لها دلالة إحساس التاريخي عند العرب، المبني على تعزيز الانتماء، من خلال العناية بالنسب والأصول، لكن لم يأخذ عند العرب بعين الاعتبار التدوين، فالمهتمون بالأنساب يحفظون معلوماتهم عن ظهر قلب، ولهذا الكثير من الأنساب تضع إذا لم يقبض لها من يحفظها. ولهذا كان دور هذا العلم ضئيلا في تشكيل الصور الأدبية للكتابة التاريخية.

أما أخبار عرب الجنوب الذين انتقلوا من طور البداوة إلى حياة الاستقرار، في اليمن والحيرة، فقد اهتموا بتدوين أخبارهم ونقشها على أوابدهم الأثرية، ومعابدهم وقلاعهم وسدودهم بلغة الجنوب وخطهم الخاص "المسند".³

ويبدو أن رواة العرب الأوائل كان بإمكانهم الاستفادة من دخول تقويم ثابت إليهم، وهو عام 115 ق م، حيث وصلت حمير إلى السلطان الواسع في اليمن، وبعدها غلب الطابع الأسطوري على وصلنا من أخبارهم المتمثلة في أخبار سد مأرب وتصدعه وانهيائه في سيل العمر، وهجرة كثير من القبائل اليمنية إلى الحجاز وتهامة ونجد، ومشارف كل من العراق والشام، وأخبار بلقيس ملكة سبأ وعلاقتها بالنبي سليمان -عليه السلام- واستيلاء "أبي بكر تبان على اليمن، وحكم يوسف ذي نواس -أحد ملوك دولة حمير الثانية- واضطهاده لنصارى نجران وإحراقهم في الأخدود، وغزو الحبشة لليمن على يد القائد أرياط، وبناء أبرهة الحبشي كنيسة القليس في صنعاء وحملته على مكة في عام الفيل 571 ق م، وحروب "سيف ذي يزن الحميري" مع الأحباش وطردهم من بلاده بمعونة الفرس.

وهذا ما جعل أخبار الرواة فيها الكثير من الحيرة الارتباك، لصعوبة تحقيقها وتمحيصها، ولذلك وجدنا المؤرخ اليمني "الهمذاني" (القرن الرابع هجري) ينتقدهم بقوله: "فوجدت أكثر الناس يخطب خط عشواء ويعمه في حندس طخياء"،⁵ ولكن رغم طابعها القصصي مثل أدب الأيام فإن أخبار الرواة فيها الديمومة والاستمرار، ولعل من أشهر الرواة نجد "كعب الأحبار"، و"وهب بن منبه"، الذي يعتبر واضع إطار السيرة وتاريخ الأنبياء، إضافة إلى عبيد بن شربة الجرهمي.

هذه أقدم صورة للكتابة التاريخية عند الرواة، التي قصت أخبار القبائل العربية، ونظرا لطول تداولها بين الناس فإنها لم تسلم من الدس والزيغ فظهرت في شكل روايات مضطربة غير متماسكة ينقصها الدقة والمنهج التاريخي. ورغم يذكره بن نديم في "الفهرست" من عناوين كتبهم، فإن الكثير منها يعتبر في حكم المفقود ولم يصل إلينا، وما اقتبس المؤرخون المسلمون فيما بعد لا يتجاوز بعض الأخبار والروايات المتفرقة عن أحداث متباعدة تعوزها الدقة وتفتقر إلى التماسك والحس والمنظور التاريخي.⁶

2. القرآن الكريم ونشأة التدوين التاريخي

وهو أول مصدر موثوق في صحته حول توجيه المسلمين إلى الاهتمام بالتاريخ رواية وبحثا وتدوينها ومنهجها، وذلك بتوجيه المسلمين إلى الاهتمام به، لما ذكره من أمثلة عن الشعوب والأمم الماضية، وما تحمله قصصهم من مواعظ أخلاقية نستحق الوقوف عندها للاعتبار التفكير (عاد وثمود، غزوة "أبرهة الحبشي" للكعبة، حادثة سيل العرم باليمن، أخبار الأنبياء وشعوبهم الخ..)

أعطى القرآن مفهوما جديدا لمعنى الأخبار، وهو البعد التاريخي للوجود الإنساني من التسلسل التاريخي للأنبياء ومنه الشعوب والقوميات، مما كوّن للمسلمين فكرة النظر العالمية للأحداث التاريخية، بتعاقب الأجيال والأمم، كدلالة على أن الأحداث التاريخية لها معنى وذات بناء منطقي، تتطلب التمعن والدراسة لفهمها.

ولما جاء القصص القرآني مختصر واقتصر على العبرة منها، دون تحديد الإطار الزمني والمكاني الدقيق للحدث، مما دفع المسلمين إلى البحث والتنقيب في أخبار تلك القبائل وبلادهم، وجمع ما أمكنهم من روايات حول الأنبياء وأقوامهم، فكان هذا الاهتمام بمثابة الخطوة الأولى في ميدان تطور الرواية والبحث التاريخي وتكوينه لدى المسلمين.

كذلك ورد في أي القرآن الكريم العديد من القضايا التي اعترضت الدعوة الإسلامية، سواء أشخاص أو جماعات، التي قاومت عملية التغيير، وأرادت المحافظة على الهياكل القديمة ونظامها الاجتماعي الجاهلي الذي سبق الإسلام. ولذلك قد أكد القرآن على وجوب الاقتداء بالنبي -صلى الله عليه وسلم- ومواقفه وطرق حله للمشاكل والقضايا المختلفة التي واجهت الدعوة الإسلامية وبناء دولتها، فتبلورت فكرة الاهتمام بسيرة الرسول وتفاصيل حياته وشماله، فاهتم الرواة بأخبار المغازي، وهي الإرهاصات الأولى لنشأة الرواية والكتابة التاريخية.

3. الرواية ومنهج الكتابة التاريخي

ويقصد به رواية أقوال الرسول - صلى الله عليه وسلم - التي لم تدون في البداية، بل كانت تنقل شفاهة، وكان منهج الرواية يعتمد أساساً على الرواية الشفهية وعلى الرواة، وسلسلة الرواة تعرف بالسناد، أما الرواية فهي الحديث الشريف، وقد انتقل هذا المنهج إلى أغلب رواة التاريخ الإسلامي.

ويعتبر أصل التاريخ من المعارف النقلية عند المسلمين، قبل أن يتحول إلى علم له منهجه الخاص، الذي يقوم على الشك والتحري في صحة الناقل قبل صحة المنقول، وقد دام ذلك طويلاً قبل جاء منهم من ينتقد ويفسر ويعمل الروايات التاريخية.

وكان الصحابة الأجلاء - رضي الله عنهم - أول من مثل دور الرواة بالنسبة للتاريخ الإسلامي، وقد وضعوا شروطاً وقواعد أولية، مبنية أساساً على التحفظ خشية الوقوع في الخطأ، ولذلك اشترطوا على الرواة التقليل من رواية الأخبار أولاً، ثم التحري والصدق في قول الرواية، لدرجة أنهم عدوا الرواية كالشهادة لا تؤخذ إلا ممن تقبل شهادته، أي من تتوفر فيه خصال الصدق والعدالة، واشترطوا في الرواية سماعها من المصدر الأول للخبر وهو الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

وبازدياد عدد المسلمين وتوسع المجتمع الإسلامي، وانتقال الكثير من الصحابة إلى الأقاليم والأمصار واستشهادهم في المعارك والحروب، ظهرت الحاجة إلى تدوين بعض الأخبار خشية ضياعها، وبذلك صارت الرواية وإسنادها مكتوباً، لكن علماء الإسلام في بداية الأمر لم يقبلوا بالمصادر المكتوبة إلا بعد مقارنتها بمصدر شفوي ورواية شفهية، كذلك اشترطوا على الراوي شروطاً منها: بلوغ السن الذي يصير فيها الراوي عاقلاً مميزاً، القدرة على الضبط، التحلي بميزة الالتزام بحدود الدين والعدل في تطبيقه. و لم يحرص المسلمون في تحري الخبر ومضمون الرواية وإسنادها فحسب، بل كانوا يستحلفون الرواة ولا يقبلون منهم الرواية إلا بينة، فهذا المنهج المبني على التحري والتدقيق صان للمسلمين معارف تاريخية كثيرة، وهو في الحقيقة يحوي في مضمونه خصائص المنهج العلمي للأبحاث التاريخية الحديثة.

وقد ساعدتهم تطبيق هذا المنهج على تصحيح المتون "الخبر التاريخي"، وحددوا السباب التي تؤدي إلى أخطاء الرواة، مثل ضعف السمع بالنسبة للأخبار المتداولة شفهيًا، وحذروا من ضعف البصر بالنسبة للروايات عن الروايات المنقولة عن مصادر مكتوبة، وهذا ما يعرف بالتصحيح أو التحريف.

وقادهم هذا المنهج إلى المزيد من التعمق في متون النصوص والروايات والأخبار، ورتبوا أبوابها، ووضعوا لكل باب اختصاص تندرج فيه الروايات الأخبار التي تتصل به، سواء كان ذلك في المجال الفقهي أو التشريعي أو في المجال التاريخي.

هذا الترتيب الموضوعي للأحداث قاد الكثير منهم إلى الاهتمام بالسيرة النبوية الشريفة، فيما يتعلق بحركات الغزو والجهاد والفتوح الأولى، فظهرت كتب السيرة والمغازي، ككتابة تاريخية أولى بعد إدراك البعد الزمني. ونظرا لإدراك المسلمين أهمية الزمن في الرواية في وقت مبكر، استحدثوا التقويم الهجري، حيث تذكر الروايات الإسلامية أن أول من أرخ التاريخ مأخوذ في الأصل من اليمن حسب ما ذكره السخاوي: "... قيل أن أول من أرخ التاريخ "يعلى بن أمية" حيث كان باليمن، وذلك أنه كتب إلى عمر-رضي الله عنه- كتابا من اليمن مؤرخا، فاستحسنه عمر فشرع في التأريخ" ويقول: "روى ابن أبي خيثمة عن طريق محمد بن سيرين قال: قدم رجل من اليمن، فقال: رأيت باليمن شيئا يسمونه التأريخ، ويكتبونه من عام كذا وشهر كذا، فقال عمر-رضي الله عنه-: "هذا حسن فأرخوا".

4. كتب السيرة والمغازي

وهي المدماك الأول والمتين للرواية والكتابة التاريخية، ورغم أن المهتمين اعتبروا كتب السير والمغازي في عداد المحدثين من خلال اعتمادها الأسانيد والرواة، إلا أنها أدخلت عنصري البحث والتدقيق في جميع الروايات. خاصة أنها بالإضافة إلى اعتمادها على الرواية الشفوية، اعتمدت مصادر مكتوبة، فوجدنا في ثنايا نصوصها مصطلح "الأصول"، والتي تعني الوثائق المكتوبة. وقد أكدت أبحاث كل من المستشرق الألماني "شينجلر" في دراسته للإسناد، أن الرواة الأول كانت بين أيديهم صحف ونصوص مكتوبة، ووافقه المستشرق "هوروفيتش" في كتابه المغازي ومؤلفوها، ودراسة ما وصلنا من كتب المغازي يبين أنها تضم في حناياها كتباً أخرى سبقتها. وحاول "هوروفيتش" إعادة تكوين تلك الكتب الأكثر قدما معتمدا على بقاياها المحفوظة في المصادر المتأخرة، والتي كانت تحسب خطأ من الروايات الشفهية.

ثم جاءت أعمال الباحث التركي "فؤاد سيزكين" في موسوعته "تاريخ التراث العربي" لتؤكد أن التدوين التاريخي عند العرب يعود إلى فترة متقدمة جدا، وقد بدأه الرواة الذين يمكن اعتبارهم هم أول من وضع اللبنة الأولى في بناء منهج البحث التاريخي. من النماذج في ذلك عن بعض الرواة على سبيل التمثيل لا الحصر:

1- الراوي سعيد بن جبير: الذي قال: "...ولما أتيت "ابن عباس" فكتبت في صحيفتي حتى أملاها، ونعلي حتى أملاها، وكتبت في كفي.. كنت آتي ابن عباس فأكتب عنه"⁷.

2- الراوي ابن أبي ليلى (المتوفى 148هـ) الذي يذكر أنه سأل "الحسن بن علي بن أبي طالب"-رضي الله عنهم- عن رأي والده في الخيار أي أولي الفضل، فأمر بإحضار صندوق وأخرج منه صحيفة صفراء تضم آراء الإمام علي-رضي الله عنه- في ذلك.⁸

فكتابة الرواة لبعض الأحداث والمراسيم، شكلت أول إرهاص للكتابة التاريخية والشواهد على ذلك كثيرة:
- الرواة الذين سجلوا أوامر الخلفاء إلى الولاة، مثل كتاب عمر بن الخطاب-رضي الله عنه- إلى أبي موسى الأشعري،

صحيفة سمرة بن جندب الصحابي، صحيفة أبي سلمة نبيط بن شريط الأشجعي وصحيفة عبد الله بن جابر.

5. رواة الأنساب

وثمة ما يؤكد أنه عندما أراد عمر-رضي الله عنه- تدوين الدواوين (دويان العطاء ودويان الجند) فقد شكل لجنة ثلاثية لكتابة ثبت بآنساب العرب، تكونت من "أبي عدي جبير بن مطعم، (أحد مشاهير علماء النسب)، "مخزومة بن نوفل"، و"عقيل بن أبي طالب". فوضع هؤلاء ثبت لآنساب العرب قام على أساسه الدواوين العمرية، فكان ذلك أول تدوين تاريخي للآنساب، مما يؤكد أن علم الأنساب لم يكن متروكا لذاكرة النسابين وروايتهم الشفهية.

وبذلك شكل هؤلاء الرواة الإطار العالم لاهتمامات الناس التاريخية، فوضعوا الجذور الأولية لنقلة التاريخ من الذاكرة، والمعرفة الشفهية إلى المعرفة المكتوبة، أي من التاريخ الروي إل التاريخ المدون. هذا التدوين الذي كان بالأساس ينطلق من الاهتمام بأمور الدين إلى الخبر التاريخي بحاجات تشريعية، وتبلور مع الزمن في اتجاه ينطلق من الحادث التاريخي إلى الخبر المسجل، ومنه اهتم العرب المسلمون بتدوين كل تفاصيل الأحداث التاريخية، كالآنساب، المغازي، الفتوح، الأمصار، الخطط، الممالك الخ ..، وصارت الرواة فيما يتعلق برواية وتسجيل الأحداث والمعارف التاريخية في اتجاهين أساسيين أفرز مدرستين أساسيين للرواة:

الاتجاه الأول: علمي شرعي، ظهر عند أهل الحديث، في كل من الحجاز ومدينة رسول الله- صلى الله عليه وسلم-، حيث توطن الصحابة والخلفاء الراشدون، حيث نشأت مدرسة التاريخ، التي انطلقت من الاهتمام بالمعارف الخاصة بالمغازي والسير خاصة.

الاتجاه الثاني: وهو اتجاه قبلي، تنامى مع التجمعات القبلية، حيث توطنت الأرستقراطية العربية في البصرة والكوفة، ومنها كان المنطلق إلى بلاد الجزيرة وبلاد فارس وخراسان والهند وتركستان، بحيث ظهر كبار الرواة والإخباريين، فنشأت مدرسة التاريخ في العراق.

6. مدرسة رواة المدينة

والتي تعتبر بداية الدراسات التاريخية في حلقات الدراسة، كل حلقة يوطرها عالم، ولما كانت المدينة عاصمة الدولة الإسلامية، فقد جاءها الطلاب والرواة من مختلف الأقاليم لمعرفة الأحكام الإسلامية والحديث والسنن وتفاصيل الهجرة والمغازي، وقد تعددت حلقات الدراسة، مشكلة النواة لنشوء رواية التاريخ في المدينة، وقد تميزت هذه المدرسة بالمعارف التاريخية الإسلامية وتحديدا في الحديث و المغازي والفقه وأشهر رواها: - "عبد الله بن عباس" (المتوفى 78هـ) بالطائف، الذي كان يسمى بحرا لكرة علمه، قال ابن سعد: "كان أناس يأتون ابن عباس للشعر، وناس للأنساب، وناس لأيام العرب ووقائعها، فما من صنف إلا يقبل عليه بما شاء" وقد أخذ عنه الكثير من رواد المؤرخين، فالطبري نقل عنه رواته عن العرب البائدة والإسرائيليات والمغازي، وأخذ عنه الكافجي في كتابه "المختصر في علم التاريخ" الذي يعتبر من مؤسسي منهج تفسير التاريخ، ويذكر "ابن سعد" عن أحد الرواة وهو "كريب بن أبي مسلم" مولى ابن عباس أنه كان لديه حمل بعير من كتبه وأقواله المكتوبة، وتلك أول خطوة للكتابة التاريخية.

عروة بن الزبير بن العوام (23-94هـ)، وهو مؤسس منهج العناية بالمغازي، وكتابه في المغازي كان مفقودا على الرغم من كثرة النقول عليه، ففي سيرة ابن إسحاق ومغازي الواقدي وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري روايات كثيرة عن أحداث سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومغازيه عن عروة بن الزبير⁹. وقد أضاف عروة شيئا جديدا إلى الرواية التاريخية، حيث اتسم أسلوبه بالبساطة والنظرة الواقعية للأحداث والصرامة، والبعد عن المبالغة والخيال، وهذه كلها من المميزات التي أخذت بها الدراسات التاريخية الحديثة. والشيء الجميل عنده أن مكتبته منزله الاجتماعية من الحصول على معلومات تاريخية من مصادرها الأولية، ولزم شهود عيان وأشخاص شاركوا في الحدث، مما يعطيه صفة الموثق للحدث، وتنوع مصادره، أي الوثائق المكتوبة كما يعتمد الأخبار الشفهية.

ويعتبر "محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري" (المتوفى 124هـ/742م)، أول من أعطى من خلال روايته للسيرة النبوية هيكلًا محدودًا للكتابة التاريخية ورسم خطوط بوضوح، وأسس ملامح المنهج التاريخي الصحيح وأهم إسهاماته في ذلك تمثلت في::

- ترتيب تسلسل الأحداث من ما قبل الإسلام حتى فترة الخلفاء الراشدين مذكرا على الحوادث الهامة والأحداث الرئيسية في تاريخ الأمة الإسلامية (التاريخ العام)

- البحث الواسع في روايات أهل المدينة ، وتمحيصها إضافة ما يسمى الإسناد الجمعي ، وبالتالي ساعد في ظهور الكتابة المتصلة التي يعتمد عليها المؤرخون بعده.

- اعتماد أسلوب انتقاء الروايات، وأخذ منها ما يتصف بالصراحة والدقة في التعبير عن الحدث.

"الواقدي محمد بن عمر" (130-207هـ) وهو من أهم رواة السيرة، فقد ذكره صاحب سير أعلام النبلاء وذكر قول أحمد بن حنبل عنه : " لم نزل ندافع أمر الواقدي حتى روى عن معمر ، عن الزهري ، عن نيهان ، عن أم سلمة ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : أفعميأوان أنتما فجاء بشيء لا حيلة فيه..."¹⁰

ويمثل كتابه "المغازي" الصورة الأخيرة من مراحل تطور رواية السيرة النبوية الشريفة في القرنين الأول والثاني للهجرة. حيث طبق المنهج التاريخي العلمي في ترتيب المادة التاريخية، وفي دقة التحديد التاريخي لكل حدث سجله، فضلا عن إيراد الكثير من التفاصيل التي لا نجدها عند غيره، مثل تاريخ الحدث ومكانه، وذكر المعارك بأمكانها وتاريخها والشعارات التي اتخذها المسلمون فيها. وكذلك يورد قوائم بأسماء الذين استشهدوا أو قتلوا في المعارك، وأسماء المشاركين فيها، وهو ما يمثل الملاحق في الكتابة التاريخية الحديثة.

أما ابن سعد محمد أبو عبد الله (168-230هـ) في "الطبقات" فقد أتم ما بدأه الواقدي في وضع الهيكل العام للدراسات التاريخية في ميدان السيرة والمغازي.

7. مدرسة التاريخ في العراق

إذا كانت البصرة والكوفة من المدن التي مضى بها العرب منذ عهد "عمر بن الخطاب" -رضي الله عنه-، وانتقلوا إليها وأقاموا فيها الأسواق والعمائر، وكذا مفاخرات الشعر الجاهلي وعادات العرب وأيامهم فظهرت بها نهضة أدبية وفكرة لاسيما في العهد الأموي. وتحولت ذواوينها إلى العربية منذ عهد "عبد الملك بن مروان" فاشتدت الحاجة إلى ضبطها وجمع ألفاظها، وضبط أنساب العرب وأيامها ونظرا لاختلاف البيئة الثقافية والعصبيات السياسية، والأفكار المذهبية والشعوبية، فاحتاج الراوي لنقل الروايات الشفوية إلى رواية مدونة وأهم روادها:

"عبيد الله بن رافع" وهو كاتب أمير المؤمنين على مدة خلافته في الكوفة، يعتبر أول مؤرخ مدرسة العراق وهو أول من صنف في المغازي والسير والرجال في الإسلام لأنه لم يُعرف من سبقه، وقد كتب "فضايا أمير المؤمنين" وكتاب "تسمية من شهد معه أمير المؤمنين في حروب الجمل وصفين والنهروان من الصحابة" - رضي الله عنهم-¹¹ وتعتبر تلك الفترة فترة علماء رواد في شتى حقول المعرفة ومن أبرز من كتب في رواية التاريخ:

"أبو عمر بن العلاء" (المتوفى 54هـ / 770)، يقول عنه الجاحظ أنه: "أعلم الناس بالعربية وبالقرآن والشعر وأيام العرب وأيام الناس".¹²

حمادة الراوية (المتوفى 156هـ/774م) ورغم أن آثاره كلها ضاعت لكننا نجدها في كتاب اتحاد العرب لأبي "فرج الأصبهاني" وكتاب وفيات الأعيان "لابن خلكان" وكلها تتصل بأيام العرب.

أما "عوانة بن الحكم" الضرير (المتوفى 147هـ/764م)، من العلماء الرواة الكوفيين، يكنى "أبا الحكم" وكان علماً بالأخبار والآثار، وقد ذكره الحموي في المعجم "أنه كان عثمانياً ويضع أخباراً لبني أمية"¹³. وأبرز آثاره كتاب التاريخ، وربما لأول مرة يظهر فيها مصطلح التاريخ كعلم بعنوان واضح، وحسب "روزنتال"،¹⁴ يعتبر الكتاب من أوائل الكتب التي تخصصت لخليفة ولأسرة حاكمة في الإسلام، ويعتبر من رواد الرواة الذين رتبوا كتبهم على الدول. والروايات التي وردت في كتاباته تكشف عن ومعرفة قوية بدخائل العهد الأموي، دون أن يتعصب لهم، بدليل أنه يورد الرأى المعارضة لهم، لكنه في نفس الوقت يعطي للأحداث اللون الأموي حيث يصبغها بالصبغة الجبرية في تفسير الأحداث والتطورات التي عرفت الدولة الإسلامية.

وقد روى عنه "الأصمعي" و"ابن عدي" والكثير من أهل العلم¹⁵، وكان المصدر الذي استقى منه الكلبي والمدائني والهيثم بن عدي وعن طريق هؤلاء نقل الطبري، فأخذ عنه الطبري روايات رواها بجانب العلويين، وأخرى ضد الكوفة، وتجد في كتاب الأنساب للبلاذري روايات لعوانة بجانب الزبيريين وأخرى ضد الحجاج.¹⁶ "سيف بن عمر أو" الضبي الأسدي التميمي" (المتوفى 180هـ/796م): نشأ وتثقف في المدينة ثم رحل إلى الكوفة ويعتبر أحد أصحاب رواية السير والأحداث، قد روى عن شعيب بن إبراهيم،¹⁷ وله كتب "الفتوح الكبير والردة"، وكتاب "الجمال ومسير عائشة وعلي" ويعتقد أن أخبار كتبه مستقاة من روايات قبيلة تميم، بمعنى أن رواياته ذات طابع قبلي وهو منهج عرفه بعض رواة التاريخ الإسلامي، ورغم ذلك يعتبر ثقة عند ال "الطبري" الذي نقل عنه في أكثر من ثلاثمائة موضع لاسيما فيما يتعلق بأخبار علي وصفين من سنة 10هـ السنة التي ادعى فيها مسيلمة الكذاب النبوة في حياة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وينتهي سنة 36هـ في ابتداء خروج علي -كرم الله وجهه- إلى صفين.¹⁸

وأهمهم "علي بن محمد بن عبد الله المدائني" (135-225هـ) أصله من البصرة ثم رحل بغداد، ويعتبر قمة التطور الإخباري السابق للتأريخ، قال عنه البغدادي: "من أراد أخبار الجاهلية فعليه بكتب أبي عبيدة محمد بن مثنى التميمي: (211/114هـ)، ومن أراد أخبار الإسلام فعليه بكتب المدائني"،¹⁹ وكتبه قدرت بـ 240 كتاب بموضوعات متنوعة ويعتبر المصدر الرئيسي للمؤرخين الذين جاءوا بعده، ومنهجه يعتمد على نقد الروايات

وإثبات الأسانيد، وبالتالي يعطينا صورة واقعية من خلال نقده لرواياته وإثبات أسانيده حتى لقب بصاحب الكتب المصنفة.

ومن الرواة الذين عرفوا بالميلول المذهبية، نذكر على سبيل المثال لا الحصر، "محمد بن سائب الكلبي" (المتوفى 146هـ/763م)،²⁰ من علماء الكوفة بالتفسير والأخبار وأيام الناس ومقدم الناس بعلم الأنساب، وقد عرف بتحيزه للشيعة لكن هناك إجماع على أنه أول من روى في الأنساب ولم يؤلف، لكن نجد ذكره في أمهات كتب التاريخ الإسلامي باعتباره من أشهر الرواة. وقد تابع العلم بعده ابن "هشام بن محمد الكلبي" (المتوفى 204هـ/819م) على أنه توسع أكثر من أبيه في رواية الأخبار والتاريخ، التي تنوعت مصادرها فهو بإضافة مرويات أبيه يعتمد "عوانة بن الحكم"، وكتب مترجمة عن تاريخ الفرس، وينقل مرويات وأساطير شفوية، ويروي عن أهل الكتاب وعن ابن صالح في تاريخ الأنبياء وعن الترجمات والسجلات الحيرة، والجدي عنده أنه يذكر مصادره مما يجعله من أوائل من اتجه إلى تثبيت منهج الإسناد في الرواية التاريخية.

وقد ألف قرابة 140 مؤلف، ذكرها ابن نديم، أغلبها في أحوال العرب قبل الإسلام، وصلنا منها قطعة من كتاب "جمهرة النسب" وكتاب "الأصنام" الذي نشر بمصر²¹ وكتاب "نسب فحول الخيل في الجاهلية والإسلام" الذي أضحي ابن الكلبي المصدر الأساسي لمن جاء بعده من كبار المؤرخين كالطبري والمسعودي وابن قتيبة، ومع ذلك اتهم هشام وأبوه بالوضع والكذب، وتجنب جماعة من العلماء الرواية عنه.²² كذلك "نصر بن مزاحم" (أبو الفضل المنقري التميمي) (المتوفى 212هـ/827م)، ويعتبره "كارل بروكلمان"، أول إخبار شيعي مع أنه سبقه أمثال "أبو مخنف" و"محمد بن سائب الكلبي"، وربما يعود ذلك إلى اهتمامه بالروايات والإخباريين ذوي الميول الشيعية، وتناول الموضوعات المتعلقة بوقعة الجمل وصفين ومقتل الحسين ومناقب الأئمة، وموقفه المعادي للحزب الأموي، أخذ عنه الطبري ومحمد بن أبي الحديد، غلب على روايته الأسلوب القصصي والشعر والحوار الخطب، وعدم الاهتمام بالإسناد وتحديد التواريخ.²³

هذه بعض النماذج التي تبين إرهاب هذه الفئة من الرواة والإخباريين في التأسيس لمنهج الكتابة التاريخية والتي يمكن تلخيصها في جملة من الإسهامات:

فالرواة والإخباريون أسسوا للكتابة التاريخية، فقد قاموا بمجموعة من العمليات القاعدية، فهم الذين قاموا بعملية الاستماع شهادة الشهود المباشرين للحدث التاريخي، والتي معظم معلومات التاريخ الإسلامي الأولية، إنما جاءت بهذا الطريق، ثم دأبوا على عملية حفظ المعلومة، والتي لم تكن تتم عن طريق الذاكرة وحدها، ولكن وثقت بالتسجيل والتدوين الكتابي الشخصي كما بينا من قبل، والتدوين كان يتم بمعونة الذاكرة والشهود

للمحافظة على صحة النقل ودقته. وخوفاً من التحريف والدس أو خيانة الذاكرة،²⁴ ثم تجشموا بمهمة نقل المعلومات والأخبار إلى الآخرين، وهي بدورها عملية شفوية ثم الصحف المكتوبة. ومهما يكن من أمر فقد كان لهم السبق والفضل في توفير المادة الأولية والأصول للكتابة التاريخية.

على الرغم من طابع الحفظ والرواية عند هؤلاء الرواة، إلا أن الكشف عن وجود تدوين لدى بعضهم، سواء كانت نقوشاً أو برديات، دلّ على وعي ودراية بمعنى الكتابة التاريخية لدى هؤلاء.²⁵ وعن ذلك يقول الجاحظ: "كانوا يجعلون الكتاب حفراً في الصخور، ونقشاً في الحجارة، وحلقة مركبة في البنيان، فربما كان الكتاب هو الناتج، وربما كان الكتاب هو الحفر إذا كان تاريخاً لأمر جسيم، أو عهداً لأمر عظيم أو موعظة يرجى نفعها، أو إحياء شرف يريدون تخليد ذكره أو مدته..²⁶"

ورغم ما اكتنف رواياتهم من نقص علمي، إلا أنهم حاولوا تقديم أنموذج للتاريخ العالمي، متمثلاً في تاريخ الرسالات، فقد استهل مثلاً وهب بن المنبه ببدء الخليقة وتدرج إلى تاريخ العهد القديم ثم الأنبياء الذين ذكرهم القرآن،²⁷ وقد سار على هذا لمنهج أغلب الرواة الإخباريين وكبار المؤرخين المسلمين.

تطور اتجاه الرواة في الرواية والكتابة التاريخية من الاهتمام بالمآثر والأنساب إلى ظهور عصبية محلية للأمصار، فمثّل الرواة والإخباريون دوراً هاماً في بلورة الدراسات التاريخية، وتركزت فعاليتهم في الكوفة والبصرة. فبعدما مثل الرواة والإخباريون الأوائل الاتجاه القبلي، أرجعوا المآثر والمواد التاريخية إلى الروايات العائلية والقبلية والروايات التي تتداول في المصر الذي يتعصبون له. ويبدو أنهم رجعوا إلى السجلات الرسمية والدواوين التي كانت بالشام والعراق، وأضافوا إليها روايات أهل المدينة، مما يعلل ويفسر كثرة الروايات وتنوعها وتناقضها أحياناً، وبالتالي قدموا مادة تاريخية خاماً، سمحت لمن جاء بعدهم نقلها وتمحيصها بالتحليل والمقارنة.

اعتمد الرواة والإخباريون الإسناد، واستعملوه بحرية وبيعض التساهل، وازدادت أهميته بالتدرج، مما يظهر أثر الاتجاه الإسلامي في التأسيس التاريخي، المبني على التثبت من الرواية والأخبار وتدقيقها وتحققها. ورغم أن جل مؤلفات الرواة والإخباريين لم تصلنا، فقد ظهر ذلك في المقتطفات التي وصلتنا ضمن مؤلفات المؤرخين الرواد، مثل الطبري والبلاذري والمسعودي وغيرهم.²⁸

أمر آخر هام برز عند الرواة، وهو التخصص المحلي في رواية الأحداث قال ابن نديم مبيناً ذلك: "قالت العلماء .. أبو مخنف بأمر العراق في أخبارها وفتوحها ويزيد على غيره، والمدائني بأمر خراسان والهند وفارس، والواقدي بأمر الحجاز والسيرة، وقد اشتركوا في فتوح الشام"،²⁹ وهذا الاتجاه سيتطور كذلك عن كبار المؤرخين الذين صنفوا في تاريخ المدن والأمصار، مثل تاريخ دمشق لابن عساكر، وتاريخ حلب ومكة وغيرها.

ظهر لدى بعض الرواة الميول والتعصب المذهبي للشيعية أو السنة، أو التزلف السياسي لذوي السلطان والجاه، وبقدر ما كان ميولهم وتحيزهم يدفعهم إلى الذاتية، فقد تطلب ذلك منهم اللجوء إلى الاستدلال على قناعاتهم، والاستشراف في كتاباتهم، وقد ساهم ذلك على نقل الكتابة التاريخية من السرد إلى الاستدلال والتحليل، ودفع المخالفين لتلك القناعات إلى البحث والتنقيب والاستدلال، وكل ذلك كان ينقل العملية التاريخية نقلة نوعية لكي تخضع مواده للتفسير والعملية الفكرية.

الخاتمة

تكون عودة على بدأ، صحيح أن الرواة والإخباريين الأوائل لم يعتمدوا المنهج التاريخي الخالص في رواياتهم ومؤلفاتهم التاريخية، إلا أنه أسسوا للكثير من القواعد والأسس التي مهدت الطريق لمن جاء بعدهم من المؤرخين، الذين وجدوا المادة التاريخية في شكلها الخام فصنّفوها في شكل حوليات أو موضوعات، وقدموها لمن جاء بعدهم للتحليل التاريخي وفق ناموس السنن وقانون السببية. ولهذا نجد الطبري وبعده ابن خلكان يقول: "العهد على الرواي".

الهوامش

- 1- بشار قويدر: مناهج التاريخ الإسلامي ومدارسه، دار الوعي، الجزائر، 1413هـ/1993م، ص 9.
- 2- "كان لأهل اليمن وثائق يمنية وسجلات حميرية، في الأنساب حفظتها بعض البطون، وكان لدى المناذرة كتب تحوي أخبار عرب الحيرة وأنسابهم وسير أمراءهم وكانت تحفظ في كنائس الحيرة، كما كانوا يعرفون من أخبار الفرس، وكان لعرب الشمال روايات شفوية عن آلهتهم وأنسابهم ومعاركهم وسائر مفاخرهم وتتداول بصورة نثرية" راجع، محمد فتحي عثمان: المدخل إلى التاريخ الإسلامي، دار النفائس، بيروت، ط 1992، ص 166.
- 3- وقد اختلف في أصل اشتقاق الخط العربي فقال بعضهم أنه مشتق من الخط المسند الحميري - يسميه المستشرقون الخط التذكاري أو النصبي - monumental script في نقوش مكتوبة على الحجر أو المعدن، يرجع أقدمها إلى القرن الثامن ق.م - ويرى الكثير من المستشرقين أنه مشتق من الخط السرياني، وقد توصل العلماء في ضوء اكتشافهم للنقوش الحجرية القديمة أن الخط العربي قريب من الكتابة النبطية القديمة، راجع عادل الألوسي: الخط العربي نشأته وتطوره، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة ن 2008، ص 30، 31.
- 4- توصل "ريكانز" إلى هذا الاستنتاج بالاستناد إلى نقش أبرهة المؤرخ بشهر ذو قيازان سنة 687هـ/ 115 ق.م.
- 5- أبو محمد حسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (المتوفى في 334هـ): الإكليل، ج 10 ص 4.
- 6- بشار قويدر: المرجع السابق ص 16

- 7- راجع ابن سعد: ال طبقات، دار صادر ، بيروت د ت ط ، ج 6 ص 287.
- 8- أحمد بن حنبل : العلل، ج 1 ص 316.
- 9- وقد حققت مؤخرا بعض أوراقه.
- 10- سير أعلام النبلاء: ص 456.
- 11- محمد أحمد ترحيني: المؤرخون والتاريخ عند العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت ط، ص 60.
- 12- الجاحظ أبو عثمان (عمرو بن بحر بن محبوب): البيان والتبيين، دار الفكر، بيروت، ج 1، ص 215.
- 13- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، د ت ط ، ج 16، ص 134.
- 14- فرانز روزنتال: علم التاريخ عند المسلمين، تعريب صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية، 1983، ص 128.
- 15- الحموي: المصدر السابق ، ج 16، ص 134
- 16- شاكِر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة 1983، ص 180.
- 17- ابن نديم (محمد بن إسحاق الوراق البغدادي المكنى أبو الفرج) (المتوفى 384هـ/1047م): الفهرست، دار المعرفة، بيروت، د ت ط، ص 82.
- 18- شاكِر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة 1983، ص 181.
- 19- الخطيب البغدادي (الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب): تاريخ بغداد أو مدينة السلام، دار الكتاب العربي، بيروت، د ت ط، ج 12، ص 55.
- 20- راجع ترجمة نسبه عند ابن نديم: الفهرست، ص 139.
- 21- يوجد المخطوط بالمتحف البريطاني، أحمد ترحيني: المرجع السابق، ص 68.
- 22- السيد عبد العزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، دار النهضة العربية، بيروت، ط 1961، ص 49.
- 23- أحمد ترحيني: المرجع السابق، ص 64.
- 24- شاكِر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، ص 75.
- 25- أحمد خليل شال: أثر الوضع في الرواية، ص 55.
- 26- الجاحظ: الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة 2002، ج 1 ص 68.
- 27- محمد فتحي عثمان: المدخل إلى التاريخ الإسلامي، دار النفائس، بيروت، ط 1992، ص 130.
- 28- " اعتمد الطبري في تأليفه على الرواة الإخباريين فمثلا في كتابته عن العباسيين اعتمد بالدرجة الأولى على "علي بن محمد المدائني (ت 225هـ) أخذ عنه ما يزيد عن الخمسين رواية، وعن عمر بن شبة (ت 262)، أخذ عنه أكثر من مائة رواية، ومحمد بن عمر الواقدي (ت 207هـ) وهنا أصحاب الدرجة الثانية في الرواية والثالثة والرابعة وهكذا" راجع عماد الدين خليل: في التاريخ الإسلامي-فصول في المنهج والتحلي- المكتب الإسلامي ، بيروت 1981، ص 119.
- 29- محمد فتحي عثمان: المدخل إلى التاريخ الإسلامي، ص 132.